

## منارات الذاكرة

وجوه النهضة الأدبية واللغوية والفكرية في المشرق،

### أحمد فارس الشدياق... لبنان يستعيد عصر التنوير

توجه الجامعة الأميركية في بيروت هذا الشهر تحية الى الكاتب والصحافي والرحالة اللبناني أحمد فارس الشدياق من خلال ندوة تضيء على ارثه الفكري والادبي واللغوي. مناسبة للعودة الى مساره وحياته ومساهماته التي اهتمت لوقت طويل



صورة تقليدية لأحمد فارس الشدياق.

لا يمكن النظر الى احمد فارس الشدياق (1804 - 1887) الا باعتبارها حالة خاصة. كان رحالة، فيلسوفا، منظرا ومجددا لغويا، وكاتباً، وروائياً، وصحافياً، منتجا للكتب ومديرا لمطابع ودور نشر، وفوق كل هذا كان عربوياً رؤيويًا أكثر بكثير من مجاليه الذين نالوا شهرة أكبر من شهرته امثال ناصيف اليازجي (1800-1871) ورفاعة الطهطاوي (1801-1873) وعبد القادر الجزائري (1807-1883).

يعزى ذلك الى ان الرجل كان محط خلاف بين مجاليه لاسباب كثيرة. كان الشدياق اشكاليا في كل شيء. هاجم رجال الدين حين وجد انه يجب مهاجمتهم او شعر بأنهم اخطأوا. كان عنيفا وقاسيا في ما يكتبه حيال المرأة في بعض الاحيان،

سماها "رجوم وغساق الى فارس الشدياق" للرد خصيصا على الشدياق. كان الرجل بداية فيلسوفا بحسب التعريف الحرفي والقديم لكلمة فيلسوف: محب للمعرفة، للحكمة، وفوق كل هذا ممارس مطبق لها في كل اطر المعرفة التي قاربها في حياته الطويلة.

ولد فارس يوسف الشدياق (اسمه الحقيقي قبل ان يضيف اسم احمد حين اشهر اسلامه لاحقا في حياته) عام 1804 في قرية عشقوت لعائلة من الوجهاء الافذاذ ثقافيا. كانت الواجهة في تلك المرحلة لا تقاس فقط بالمال، بل ايضا بالعلم والثقافة والدور الذي يقوم به هذا الوجه في تقدم محيطه ومجتمعه. امر جعل الشدياق محصلا للثقافة منذ نعومة اظفاره، لكن هذا لم يكن ديدنه الوحيد. اذ ان تعطشه الكبير للبحث ونهمه للمعرفة جعلاه يغير طائفته بداية. هو ماروني بالولادة، لكنه اصبح في صباه بروتستانتيا بعدما اقتنع بدعوة شقيقه اسعد الذي دله على هذا المذهب. عاد وتركه ليدخل في كنف الكاثوليكية. هاجر الى مصر ودرس عند فقهاء الازهر اللغة العربية والفقهاء الاسلامي (لكنه لم يعتنق الاسلام انذاك)، ومالطا (عاش فيها قرابة اربعة عشر عاما) واصبح هناك مديرا لمطبعة للمرسلين الانجيليين ودرس في احدى الكليات (كلية فالتا). لكن ذلك لم يكفه: غادر الى بريطانيا وترجم "كتاب الصلوات" الخاص بالمذهب البروتستانتى و"الكتاب المقدس" ثم وصل الى باريس. هناك، عاش حياة تختلف عن كل ما مر به سابقا، مؤلفا اول رواية في الادب العربي بحسب الكاتبة المصرية الراحلة رضوى عاشور "الساق على الساق في ما هو الفارياقي". استمرت جولات الشدياق كثيرا، وسرعان ما استهوته تونس فزارها بدعوة من حاكمها الاصلاحى الباي احمد باشا التونسي. هناك اعتنق الدين الاسلامي، ولا بد من الاشارة هنا الى ان لاسلامه روايات عدة: روى مارون عبود في كتابه "مجددون وقدماء" ان الشدياق اعجب بالاسلام فاسلم، فيما اشار جرجي زيدان في كتابه "تراجم مشاهير الشرق" الى ان الشدياق دخل الاسلام بعدما اعطاه باي تونس منصبا كبيرا هناك، فاعتنق الاسلام على يد "شيخ

الاسلام" (اي المفتي في تلك الديار) وكني بأحمد. كل ذلك لم يوقفه عن الهجرة مرة اخرى، فذهب الى حاضرة العالم الاسلامي والعربي انذاك: الاستانة، عاصمة الامبراطورية العثمانية واستقر فيها حيث عينه السلطان العثماني عبدالعزيز الاول في ديوان الترجمة السلطاني، واصدر "الجوائب" اول جريدة عربية في السلطنة انذاك. نشر في تلك المطبوعة روائع من التراث العربي والاسلامي.

ظل الشدياق نشيطا دؤوبا حتى وافقته المنية في ايلول 1887. ساهم خلال حياته الطويلة في تنقية اللغة واستبطان لغة صحافية لم تكن موجودة من قبل. لغة منتقاة من البلاغة الزائدة، فضلا عن اضافته العديد من الالفاظ والكلمات العربية، اذ لا يعرف كثيرون ان كلمة "اشراكية" هي من تعريبه، عربيا واطافها الى القاموس العربي. واذا كنا نقول عن الشدياق بأنه كان رحالة، فذلك لأنه بالفعل كان يزور البلدان مندفعا بهاجس التجريب والاختبار قبل اي شيء آخر. كان الشدياق لا يزور العواصم الا ويكتشف كل ما فيها، لا بل انه كان يكتشف عمق عمقها، راغبا في رؤية اجمل واقبح ما فيها. يضاف الى ذلك انه كان دائما يبحث عن وظيفة في تلك المدن لانه في النهاية لا معيل له سوى عمله.

من هنا، فان تجربته الرحلانية كانت قائمة على دخوله في مجتمعات تلك المدن والانخراط فيها. وكان لذلك الاثر الكبير في فهمه تلك المجتمعات وقدرته على الكتابة عنها وحولها. يكفي مثلا ان نقرأ له هذا النص: "فاذا دخلت قصور الملوك وطفت في اسواق المدن وعانيت ما فيها من الصنائع البديعة والتحف العجيبة والالات الظريفة والفرش النفيس والثياب الفاخرة والاواني المحكمة ولا سيما مدينة لندن، علمت ان صناعاتها هم القائمون بالدنيا وهم منها محرومون. فإن دأب الصانع كدأب الفلاح من جهة انه يشقى ويكد النهار كله ولا حظ له في الليل سوى اغماض عينيه. فكيف يزين هذا الصنف من الناس هذه الدنيا ويبهجونها ويعمرونها وهم عطل عنها ومحدودون منها. والمترفون فيها لا يحسنون عمل شيء ورهما لم يكونوا ايضا يحسنون الكلام" (الساق: 592).

هنا يصور مدينة لندن لا بعين الرائي الضيف/السائح، بل ايضا بعين المتابع الذي يشكل جزءا من هذا المجتمع لا خارجه. ◀

## نقطة على السطر

### شغف الأدب... بحثاً عن الزمن الضائع

كثير من الذين يحبون الادب، ويتذوقونه، ويدمنونه، التقطوا اللوثة على مقاعد الدراسة. "في حياة كل منا استاذ ادب" كتب احد النقاد في معرض دراسته العلاقة السحرية التي كانت تربط الشاعر الفرنسي الكبير ارتور رامبو باستاذة جورج ايزمبار... ورسائل صاحب "اشراقات" الى معلمه التي تعتبر من عيون الادب، ولو انه كتبها في وقت مبكر من حياته، تشهد على ذلك. تلك الرسائل من رامبو الفتى الى ايزمبار، تعطي فكرة عن العلاقة السحرية التي يمكن ان تربط تلميذا، او طالبا، باستاذة في مادة الادب. فهذا الاخير ينقل الينا الى جانب المعرفة شيئا يصعب تحديده، اسمه الشغف!

كثير من الذين يسكنهم النفور من كل ما يمت الى الادب بصلة، تشكلت لديهم هذه العقدة ايضا من ايام المدرسة. فالمنهج التعليمي، واسلوب التعليم، وشخصية المعلم او المعلمة، تلعب دورا حاسما في استدراج التلاميذ الى ذلك العالم السحري "حيث كل شيء مرهون للجمال، حيث كل شيء ترف وهدوء ومنتعة"، كما كتب شاعر اخر هو شارل بودلير في قصيدته الشهيرة "دعوة الى السفر". لا ندخل عالم الادب بلا مرافقة، وعسا سحرية، من دون وسيط روحي او مرشد ودليل. لكننا متى صرنا في الداخل، سنتدبر امورنا بمهارة، كل على طريقته، وحتى آخر ايامنا. اي مشكلة في الذين يبقون على باب مغارة علي بابا، لانهم لا يملكون كلمة السر للدخول.

لكن ما سبق، بوجهيه الايجابي وحتى السلبي، ينطبق على زمن بات بعيدا، لنسمه الزمن السعيد. اليوم فكرة تدريس الادب والاقبال عليها لم تعد مطروحة من ال اساس. صار ورتة ايزمبار في مدارسنا عملة نادرة، او سلالة منقرضة. تدريس الادب يبدو "مهنة فاشلة، غير مجدية، وغير مربحة" حسب القناعة السائدة. الاستاذ نفسه يدرّس مكرها، ويفتقر الى القناعة والحماسة، فما بالك بالشغف؟ وماذا تتوقعون ان ينقل الى تلامذته والحالة هذه. اما التلامذة، من جهتهم، فلا شيء يغريهم في الادب، او يمكن ان يأخذهم الى الادب في عصر الامية والبراغماتية الذي نعيش. بين الالعاب الالكترونية، والحضارة الرقمية، والمشاكل المادية والسطحية، يجد الجيل الجديد مثله العليا في مكان آخر. مواطنو الغد يعتبرون صفوف الادب تعذيبا، وتذوق اللغة واتقانها والغوص على كنوزها عبثا وقصاصا. طبعا هذه الحالة مرتبطة بالازمنة ما بعد التكنولوجيا، وبانفلاش العالم الرقمي ليستلح الواقع. قلة من سكان الكوكب الافتراضي تطرق باب "غوغل" بحثا عن قصيدة لسان جون بيرس او انسي الحاج او بدر شاكر السياب. ومسلسل "لعبة العروش" حجب "البحث عن الزمن الضائع" لمارسيل بروست. لكن هذا لا يعني الاستسلام. قريبا تنحسر الصرعات، ويعود الجميع الى ميخائيل نعيمة وجرجي زيدان واحمد فارس الشدياق. علينا فقط ان نقاوم، في المدرسة والاعلام، والبيت والشارع. لا يمكننا ان نتنازل عن شغفنا، ولا يحق لنا ان نستسلم لـ"الارض البياب".

## واجهت المكتبات

اهمية كتاب "متعايشون في الظل - الوصم الاجتماعي والمتعايشون مع الايدز" ("الدار العربية للعلوم ناشرون") للباحثة باسمه الجهني.

انطلاقاً من دراسة ميدانية، تضيء الكاتبة على المشكلات التي تصادف المصابين بالايدز في المجتمعات العربية، حيث الحرج والجهل وانعدام التعاطف امور تزيد معاناتهم سوءاً وحياتهم بؤساً.



تعتبر التشيلية ايزابيل الليندي من ابرز الكتّاب المعاصرين، نالت اعمالها العديد من الجوائز الادبية المرموقة، حتى صارت الكاتبة الاكثر شعبية من بين الابداء الذين يكتبون باللغة الاسبانية.

غالباً ما تهل روايات الليندي من تجاربها الشخصية، موجهة تحية الى حياة النساء، ومازجة بين الواقع والاسطورة في قالب من الواقعية السحرية. اخيراً، عرّبت "دار الاداب" روايتها "ايفا لونا" (ترجمة صالح علماني) التي تحكي قصة ايفا اليتيمة التي تعمل خادمة، وتقاض فقرها المادي بثناء مخيلتها، فهي تهوى سرد الحكايات الغريبة. بعدوبة وبصنعة ادبية فائقة، تعرض الليندي "مصير شخصياتها كجزء لا يتجزأ من المصير الجماعي لقارة موسومة بالظلم الاجتماعي والبحث عن هويتها الخاصة".



عن "شركة المطبوعات للتوزيع والنشر"، صدرت اخيراً الترجمة العربية لكتاب "جون كيري - كل يوم هو اضافة".

هنا، يقدم جون كيري، السياسي الاميركي الذي قضى ثلاثين عاماً سيناتوراً في مجلس الشيوخ الاميركي، واربعة اعوام وزيراً للخارجية في عهد الرئيس باراك اوباما، وترشح قبلها عن الحزب الديمقراطي للرئاسة في وجه الرئيس جورج بوش الابن، شهادة مفصلة حول السياسة الاميركية وسنوات الاضطراب في الشرق الاوسط. استناداً الى مذكراته اليومية على مدى طويل، يعرض كيري المفاوضات الاميركية - الايرانية في شأن نزع الاسلحة النووية، وعلاقاته المتناقضة برئيس وزراء الكيان الصهيوني بنيامين نتنياهو وغيرهما من الملفات، الى جانب رأيه في عدد من زعماء العالم.



اصدرت "دار التنوير" نسخة جديدة من كتاب "اساطير الحب والجمال عند اليونان" للكاتب والباحث المصري الراحل دريني خشبة. الكتاب هو دراسة معمقة في الاساطير الاولى للعقل الانساني التي تعكس "دهشة الانسان واسئلته الاولى عن الطبيعة والله وبداية محاولاته لاكتشاف ذاته ككائن مستقل وحر ازاء الاشياء وجبروت الطبيعة وطغيان الملوك".



في هذه الدراسة، جمع الباحث هذه الاساطير وعزّف القارئ اليها بأسلوب سلس وشيق بعيداً من الطبيعة للجافة للباحث والدراسات.

انه "فارس الغناء الكلاسيكي". هكذا كان لقب صالح عبد الحي (1896 - 1962) الذي يعتبر الصلة الفنية الاخيرة بين عهد عبده الحامولي ومحمد عثمان من جهة، وعهد ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب ورياض السنطاوي الذي لحن له مجموعة من اعماله. يعود صاحب الصوت العذب الى الواجهة من خلال كتاب "صالح عبد الحي فارس الطرب" الذي انجزه الصحافي المصري محب جميل وصدر اخيراً عن جمعية "عرب" في بيروت. لا يكتفي الكتاب بتقديم سيرة موثقة للفنان الراحل، بل يضيء على المناخ الفني والاجتماعي والسياسي الذي كان سائداً في مصر منذ الحرب العالمية الاولى حتى بداية الستينات وتغيّر الذائقة الموسيقية والفنية على مدى هذه الحقبة الزمنية.

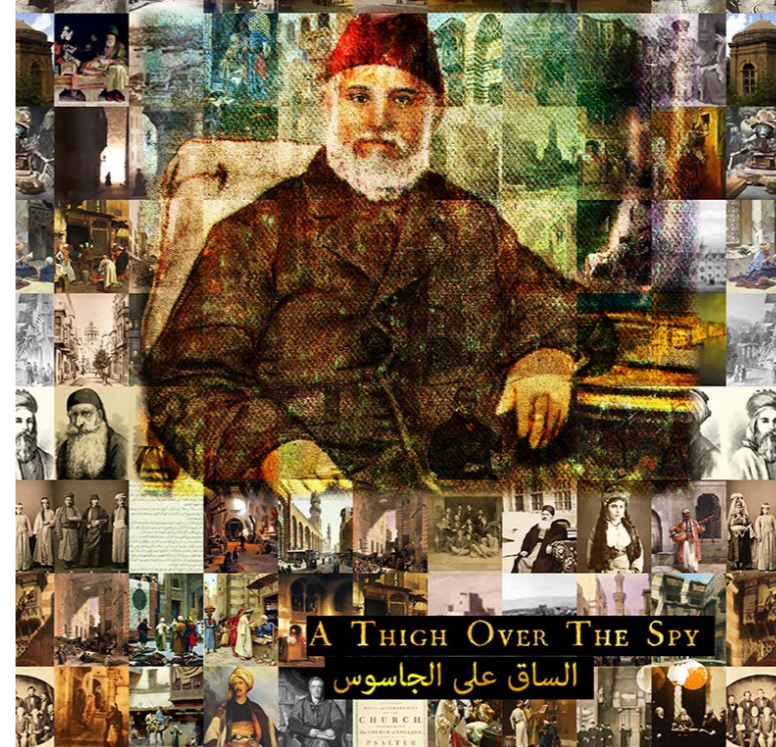


بعد روايات عدة من بينها "علي الاميركاني" و"كاريزما"، اصدرت الكاتبة والصحافية هالة كوثراني رواية جديدة بعنوان "يومان ونصف" ("دار الساقى").

كعادة كوثراني في شبك التفاصيل لمحاولة الامسك بمعنى الوجود كما قالت مرة، تحكي قصة امرأة على عتبة الاربعين، تعيد تقييم منجز حياتها والتطلعات التي خابت، والاشياء التي تحققت، الى ان يدخل رمزي على الخط محاولاً خطفها.



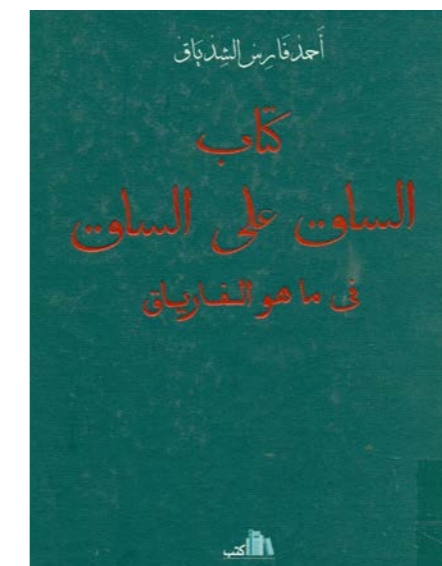
ما زال مرضى الايدز اسرى جملة من الافكار والاحكام المسبقة والظلم الاجتماعي النابع من الجهل في المقام الاول. من هنا، تأتي



لوحة عنه من اعمال الفنانة اللبنانية شيرين ابوشقرا.

ويكمل: "وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الارض قد دحاها الله تعالى لأن تكون ملك الامراء والاشراف فقط، فيستأجرها منهم اناس مأمونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها... وعدد ملاك الارض في انكلترا نحو ستين الف عيلة لا غير. وقلما يذوق هؤلاء [الفلاحون] المساكين اللحم. فجلّ اكلهم الخبز والجبن. فجزار القرية لا يذبح شاة او بقرة الا مرة في الاسبوع، ولا يبيع من اللحم الا نصف رطل او ربعه".

هنا تظهر تلك النزعة الصحافية الاستقصائية عند الرجل، فنشاهده يدخل في صميم المجتمعات ويحلل الابعاد الاجتماعية، والثقافية، وبالتأكيد الاقتصادية في سبيل فهم ماهية هذا المجتمع الذي كان في السابق يراه من بعيد حين كان يسكن في مالطا، وسرعان ما فهمه اكثر حين دخله وعاشه وعانته. في هذا النص يشير الى ذلك: "قد كنت احسب ونحن في الجزيرة [مالطا] ان الانكليز احسن حالا وانعم بالا. فلما قدمنا بلادهم وعاشرناهم، اذا فلاحوهم اشقى خلق الله. انظر الى اهل هذه القرى التي حولنا وامعن النظر فيهم، تجددهم لا فرق بينهم وبين الهمج. يذهب الفلاح منهم في الغداة الى الكد والتعب ثم يأتي بيته مساء، فلا يرى احداً من خلق الله ولا يراه احد. فيرقد في العشاء ثم يبكر لما كان فيه وهلم جرا. فهو كآلة التي تدور مداراً محتقناً، فلا في دورانها لها حظ وفوز ولا في وقفها راحة. فاذا جاء يوم الاحد وهو يوم الفرح واللهو في جميع الاقطار، لم يكن له حظ سوى الذهاب الى الكنيسة. فيمكث فيها ساعتين كالصنم يتناب ساعة ويرقد اخرى ثم يعود الى بيته" (الساق: 591).



غلاف كتابه: "الساق على الساق في ما هو الفاريقي".

رواية، بل مزج فيها فن الرحلة، مع التوثيق، مع التوصيف، وبالتأكيد مع الحكمة والتحليل السياسي والاقتصادي والثقافي.

لم يكن الشدياق مجرد شخص يكتب حول الثقافة، بل كان "داعية" راغباً في الاصلاح حتى. تجدر الاشارة ونحن نتحدث عن ادب الرحلة الى ان الشدياق لم يعتبر ان اوربا كتلة واحدة، كما تعامل معها كثيرون حال حديثهم عنها، بل انه ميز بين بلدانها. الامر نفسه انسحب على حكمته في القياس البشري، فقام سكان تلك المدن بحسب ما راه وعاشه. هكذا، مدح الانكليز لصددهم ووفائهم حسبما رأى، فيما هاجم الفرنسيين لناعية ان نساءهم "مفتقرات الى الطهارة، يحبذن عرض مفاتهن واستعراضها، مستبدات، ويطلبن من الرجل ما لا يستطيع تأمينه"، بينما الانكليزيات كثيرة، فمن الرواية، الى الرحلة، الى اللغة، الى التحرر وسواها، من بينها: "سر الليال في القلب والابدال"، و"الجاسوس على القاموس"، و"الواسطة في معرفة احوال اهل مالطة"، و"اللطف في كل معنى ظريف"، و"كنز اللغات"، و"غنية الطالب ومنية الراغب"، و"الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية"، و"سند الراوي في الصرف الفرنسي"، و"منتهى العجب في خصائص لغة العرب"، و"المرأة في عكس التوراة". كان اسلوبه اللغوي مميزاً لانه اهتم بالكلمة وبقيمة الالفاظ وانزلها بـ"منزلها". بالتالي تأتي كل كلمة في مكانها الذي تستحقه، فلا يستخدم كلمة في غير موضعها. من هنا فان كثيراً من النصوص التي كتبها جاءت باللغة العربية القديمة. لغة يصعب على كثيرين اليوم قراءتها او فهمها.